رابطـــــة الجامعات الإســـــلامية

المؤتمر العالمي الأول

العمـــارة والفنون الإســـلامية

" الماضي والحاضر والمستقبل "

القاهرة

27كتوبر / 2نوفمبر 2007م

ورقة بحثية بعنوان

" عمارة المسجد قيود الإطار ومبعث التجديد

.. دراسة في دلائل اتخاذ الموروث "

إعداد

أ.م.د/ محمد إبراهيم جبر إبراهيم*

مضمـــون الطـــرح :

" **العمارة** " منتج ثقافي .. ، جسدت بناها دلالاته ، وغدا " **الإنسان** " لقاءها كيانا فاعلا ، .. وثقت " **الثقافة** " لميوله الفكرية ، وأرخت " **الحضارات** " لذلك التوثيق .. استنادا إلي حقيقة مفادها : " **أن العمارة أداة الثقافة .. والثقافة احد روافد الحضارة** " .. إلى الحد الذي يمكن لقاءه قراءة التاريخ في بني الموروث المعماري .. ؛ باعتبار الموروث دالة للقيم والأعراف وتجسيد للرؤى .. في شقه الرمزي ، وشاهدا علي تتابع الأحداث واقعها وما ألها .. في شقه الوظيفي .. ، هو أذن جزء من ذاكرة التاريخ .

والمسجد أحد مفردات هذه الذاكرة لم يكن يوما مجرد بوتقة لأداء العبادات .. بل لعله قد جسد حياة الإنسان المسلم في شتى أفلاكها .. فهو " المسجد " .. وهو " الملتقي " .. ، و كذا " الباعث " .. ، و" المحتوي " .. ، وهو " .. ، و .. ؛ .. فـ " المسجد " : بيت الله عز وجل ، وملتقي : شوري المسلمين ، و باعث : لسرايا الجهاد ، وحاوي : أنشطة الكفالة ، و... ، و إلي غير ذلك .. ، هو بالفعل "الواقع " ، وهو " الحياة " ، .. نبضها ، وسكونها ، إليه يعزي الأمل ، وبين جنباته تشكلت القيمة .. ، ولما لا !!؟ .. وقد خصه الله تبارك وتعالي بيتا له .. قال تبارك وتعالي : ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** ﴾ صدق الله تعالي .. ؛ .. النظر لسمته غاية ، واللجوء إلي جنباته ضرورة ، تاريخه تاريخ المسلم ، ماضيه مشرق ، وحاضره مغيب ، ومستقبله شارد !! .. وهو ورغم ذلك : انعم به بيتا للإله .. ، فهو " المسجد " .. إرادته تبارك وتعالي .. ولو كره الكافرون !!..

الثابت إن " الإسلام " كشرعة ومنهاج قادر على احتواء متغيرات الزمان ومعطيات المكان ، وان مرونته تلك لاتمس " ثوابت " الصياغة التشكيلية لعمارة المسجد ؛ بيد أنها تفسح المجال لمواكبة " ماعدا " تلك الثوابت لما تمليه فرضيات اى واقع " زمانيا " و " مكانيا " .. ، بل إن ثبات مادون تلك الثوابت مدعاة لـ " تقوقع " فكري و " تقليدية " تناول ؛ .. من شأنهما إن يعززا طروحات مروجي " الحداثة" لقاء ما قد توصف بـ " التقليدية " من تراجع وجمود .. في سياق إشكالية " الاصالة " و "المعاصرة " ؛.. التي شهدت لها كافة مناحي الحياة ....

والاستقراء التحليلي لعمارة المسجد عبر عهود مضت ينبئ عن تغيراً في أنساقه التشكيلية لا يكاد يتفق وذلك الذي وثقت له عديد من العمائر مختلفة الوظائف .. فهل لذلك من دلالة .. ؟؟ .. أم لا ؟؟ .. وهل ترتبط محدودية ذلك التغير بثبات رؤية التشريع لحيثياته ؟! .. أم أن الامر أرحب من ذلك ؟؟ .. أيضا هل للاستنساخ الكائن لمفردات تلك الانساق من نتائج سلبية على الدلائل الادراكية لمغزاها التعبيري ؟ .. أم لا !!! ..

لاجل تلك التساؤلات تعرض الورقة البحثية في سياق منهج استقرائي تحليلي لدور الموروث التشكيلي في تكريس نوع من الثبات لقاء إدراك وصياغة المفردات التعبيرية لعمارة المسجد المعاصر .

كلمات الطـــرح :

" المســجد المعــني . عمــارة المســجد . دلائل التشكل .. حيثيات اتخـــاذ الإطــار. مبعث التجديد "

---

*أستاذ مساعد كلية الهندسة جامعة عين شمس بريد الكتروني : migabr@link.net

تمهـــــــيد :

ان تناول عمارة المسجد .. " البداية " و" الوضع الراهن " دون التطرق للعمارة الاسلامية .. " المفهـوم " و " الحيثيـات " يعد من الامور بالغة الصعوبة ..؛ ذلك ان.. فكر ومحتوي ؛ .. وثق لمحتواها ، وارخ لمراحل تطورهـا ، شكل رقم (1).. اليه تؤول طروحاتها ، وفي سياق قيمه تحددت بني تشكلها .. ، لقد كان موضع التشريع ..، والموجه للاحكام ، .. قـد كـان هو الباعث للمستحدث من وظائفها ، وفي سياقه تشكلت هويتهـا ، بـل قـل هويـة المدينـة الاسـلامية ، .. لاجـل هـذا كانـت مشكلات " المسجد " هي ذاتها مشكلات " العمارة الاسلامية " .. ؛ انقطاع وتقوقع ؛ .. انقطاع عن واقع تعددت طروحاتـه ، وجسدت متغيراته الكثير ، .. واقع توحدت رؤاه والتقت ثقافاته ، لقب عالمه بالواحد !! ، صنعته " تقنيات " غير مسبوقة ؛ غدت هي " اللغة " .. وهي " الاداه " !!.. اين المسجد من هذا ؟!! بل قـل ايـن العمـارة الاسـلامية ؟!! تـري هـل لعمـارة المسجد " المرجع " من كلمة ؟!!.. ام ان الهوة قد ازدادت اتساعا ؟!!.

شكل رقم (1) .. لم يكن المسجد يوما مجرد بناءا تمارس فيه الشعائر .. ؛ بل هو الباعث لما عرف " بالعمارة الإسلامية " .. الصور علي الترتيب لقاهرة المعز ومئذنة احمد بن طولون ومدينة القدس ومدينة الخليل واسطنبول بتركيا .

بداية فان علاقة " الموروث " بـ " طروحات الواقع المعاصر " تعد احد ابرز القضايا الجدلية التي المت ببنـي ذلـك الواقـع .. " جدل " شمل كافة مناحي الحياه ، انتهي الي " أزمة " ..، تضـمنتها بواعـث " الفكـر" وحيثيـات " النتـاج " ، .. ازمـة افردت لتساولات عدة .. هل للموروث " بكافة مضامينه " من دور في ذلك المشـهد المعاصـر ؟!!.. ام ان لغـة الحداثـة قـد استقلت وغد الموروث منها شاهدا ؟!! .. ، وهل لتلك " اللغة " ان تقبل بالثوابت ؟.. ام ان زخم التغير قد انساها كـل شـيئ ؟!! .. كما اشرنا فانه " جدل " طال كل شيئ .. الدين و.. و.. والفكر والثقافة والسياسة و.. ، وطبعي " العمارة " ، ومنهـا " الاسلامية " ؛ .. عرض لذلك " فريد شافعي " بقوله : "*العمارة الإسلامية تمر بمرحلـة صـعبة ، يتسـاءل الكثيـرين عـن مدي الأمل في تخطيها إياها ، وعودتها إلي أسسها أو تقاليد منها ؛ كبداية لالتقائها بمعطيات الحاضر وتطلعات المستقبل .. "* ، ولقاء ذلك فقد اقترح : " *..عودة بعض وحدات العمائر الإسلامية مثـل الفنـاء والملقـف والمشـربية وبعـض الزخـارف مثل المفروكة ، وكذا تفعيل دور الطين كمادة بناء* " .. " فريد محمود شافعي ، *العمارة العربيـة الإسـلامية.. ماضـيها و..*، 1982م " .

علي ان الملاحظ ان هناك تفاوت في تقرير كنه وحيثيات هذه الازمة ، .. بل وبالاقرار بوجودها بداية !!، .. فبينما أرجعها البعض الي : "*أزمة المصطلح* " .. وما تمنته من خلاف حول ما يعرف بـالعمارة الاسلامية ، .. دفـع بهـا البعض الاخـر الي موقع تلك العمارة " *من الحداثة* " ، ومدي اهليتها لاستيعاب طروحاتها ، بل والتلاقـي مـع معـطياتها .. ، وطبعـي ان لكلا الطرحين مبرراته ودفوعـه .

فالطرح الاول والمتعلق بـ" ازمة المصطلح ".. عرض له " فريـد شـافعي" فـي سياق رؤيتـه السـابقة بقولـه : "*ان سـبب البلبلة وعدم وضوح الرؤية لدي الكثيرين لقاء حاضر ومستقبل العمارة الإسلامية إلي غياب تعريف واضح لما يعرف بـ" العمارة الإسلامية " .. هل هي تلـك التـي تنطبـق عليهـا تعليمـات الشـريعة السـمحاء فيمـا يخـص احتـرام الجـار ومراعـاة المصلحة العامة ؟ .. أم أنها تلك المباني التي يبنيها المسلمون سواء في البلدان الإسلامية أو غيرها ؟ .. أم أنها كل ما يبني في البلدان الإسلامية بعيدا عن ديانة من صممه أو نفذه ؟.. أم انها في النهاية مجمل إنتاج المسلمون فـي البلـدان المسـلمة ؟ ..* " فريد شافعي ، *العمارة العربية الإسلامية.. ماضيها و..*، 1982م "".

وفي رده علي تلك التساؤلات يذهب " صالح إبراهيم " لكون : "*تعريف العمارة الإسلامية بما يبني في البلـدان الإسـلامية هو الأكثر منطقية* " .. ؛ ويضيف ـ في رؤية مخالفة ـ بقوله :" *.. وعليه فان العمارة الإسلامية تشهد حقبـة مـن الازدهـار في كثير من البلدان الإسلامية ؛.. خاصة تلك التي تحظي باقتصاد قوي مثل المملكة السعودية ودول الخليج وتركيا وشمال أفريقيا وغيرها ..* "، .. وأيضا لكون العمارة : " *قد تطورت بمختلف بلدان العالم وتراجعت طرق البناء التقليدية فقد غدت الحاجة إلي الحداثة مطلبا أساسيا في كافة مناحي الحياة ، ومنها العمارة .. الأمر الذي يعني عدم العودة لاستخدام ملاقف*

الهواء والأفنية لمجرد المحافظة علي التراث ؛ بالرغم من كون مضمون العمارة التقليدية لا تتنافي وطروحات التقنيات الحديثة .. " .. " محمد صالح إبراهيم .. عن العمارة الإسلامية ، 85/1986م " ، .. وهو في ذلك لا يتفق مع القائلين بان العمارة الإسلامية تمر حاليا بأزمة .

اما الطرح الثاني والمتعلق بموقع العمارة الاسلامية من *" الحداثة "* .. فمبعثه روية " ثروت عكاشة " في كتابه : " القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ،1981م " .. بقوله : " *لقد أعطت المؤثرات الإقليمية .. التاريخية منها والجغرافية العمارة في كل بلد إسلامي وفي كل حقبة تاريخية طابعا أو تراثا مميزا* " .. " شكل رقم (2) ، وقد يكون ذلك المدخل للتنوع بل والتجديد ، وبالتالي الباعث للتلاقي مع تداعيات الحداثة .. ".. ، وفي تفسيره لذلك يعرض " مكية " لموقع الموروث من طروحات الحداثة بقوله :*" الحداثة تمثل تفاعلا صحيا لما سبقها إلا أنها تفتقر لشي هام هو الهوية .. ، الهوية الإقليمية ، والهوية الإنسانية ، .. وينبغي التعبير عن التباين الثقافي لكل منطقة بما يتفق والتطلعات البشرية* " .. وفي موضع أخر يشير قائلا : "*إن الأخذ بمبدأ الحداثة ينبغي ألا ينسي الماضي باعتباره جزءا من حياتنا ، والأفضل إدخال أفكار جديدة مستوحاه من التوجهات الثقافية للمنطقة .. إن اعتبار الحداثة معيارا لتقييم كل شي يمس الهويات الثقافية والقيم مساسا مباشرا ، فالعمارة الإسلامية التقليدية ـ مثلا ـ تعتمد علي البعد الإنساني ومبادئ العقيدة والإيمان وتتعامل مع الفراغات بأساليب مختلفة تؤكد علي التوحد بقدر ما تقر بالتنوع إزاء اختلاف بيئة تشكلها* " .. " محمد مكية : "*العمارة الإسلامية بين الاصالة والمعاصرة* " ، 1986م " .

شكل رقم (2) تحددت صورة المسجد ـ فيما بعد عهد النبي ﷺ ـ استنادا إلي ثوابت تشكيلية ـ توحدت مرجعيتها ـ مع تغير محدود في صيغها التعبيرية ؛ صنعته الخصوصية المحلية ..
" الصور علي الترتيب من : الهند وبومباي وكينيا وباكستان واشنطن "

الأمر إذن لا يتعلق بتقرير قيمة موروث العمارة الاسلامية .. لقد شهدت له ربوع الماضي قبل ان تقر بتفرده رؤي الحاضر ؛ بيد ان الفاعلية تستدعي " الحضور" ، والاخير يتطلب ادراك لغة " الحوار " ، .. وحوار الواقع المعاصر استتبعه دوي وصخب لم يالفهما صاحب الحجة ، .. دعونا نتسال بداية كيف لنا ان نلتقي وذلك الحور ، لقد كان لعمراننا يوم ما ثقل " الحضور" ، غاب من بعده .. بل قل غيب ، فكيف به الان وقد اتخذ " حضور" الامس موقف " المشاهد " ، .. اذا كان للعمران من " لغة " ، .. وللغة من دلالة ، .. ففي لغتي الماضي والحاضر دلالات عدة .. ؛ بين " لغة " ماض افل نجمه .. وانقضت عجائبه ، و" لغة " حاضر قل ان يعي بمفرداتها الكثير ، .. دعونا نتسال ان كان " المسجد " هو " الباعث " لحضور الامس .. فلما لاتكن له " البداية " اليوم ؟!! .. وان قدرت له البداية " بالفعل " .. فكيف له ان يقر بحقيقة مفادها : ان الله عز وجل وتعالي قد خلق الانسان ؛ .. فهو صنعته تبارك وتعالي ؛ ولم يكن لتشريع الخالق تبارك وتعالي ان يخفق عن استيعاب متغيرات المكان وطروحات الزمان .. بالفعل انه دين الله تبارك وتعالي الي ان يرث الله الارض ومن عليها .

<u>المســـــــجد :</u>

" **المسجد** " لقيا المؤمنين .. مركز إنطاقهم منذ عهد الرسالة وحتى وقتنا هذا ، ومن أوائل المساجد التي أسست في الإسلام مسجد رسول الانسانية ﷺ ، فأعظم به من صرح ديني نزل فيه الوحي ، تلقت فيه الأمة أمر دينها وعلوم حياتها ؛ فخرجت من ظلمة الجهالة إلى نور العلم ، ومن طيف التبعية إلي ريادة الصدارة .. ، لقد عد هذا المسجد بحق نبع حياتها ، ومصدر هدايتها إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ، .. فيه سطر كتاب الله عز وجل ، وحفظ ، .. رتلت آياته ليلا ونهارا ، .. فيه تجرد الإنسان لمناجاة ربه تبارك وتعالي ، .. بين جنباته فقه الناس في أمور دينهم ودنياهم ، .. وثقوا لمبادئ العدل وصيغ التعامل ، .. لقد جسد رحلة المسلم الأول بين المعتقد " **الديني** " والمسعي " **الدنيوي** " ..؛ تلك كانت " البداية " وكنه الصناعة .

فان كان طرح العمارة الفكري يقر بحتمية العلاقة التبادلية بين الإنسان والمبني ، فما سر تلك العلاقة " الفاعلة " بين مسجد صدر الإسلام " **علي بساطته** " وبين رجال طالت أعناقهم أعنان السماء ؟!!.. من أين لهم هذه القوة ؟!! .. كيف دانت لهم حيثيات الطرح ؟!! ، وكيف وثقت رؤاهم حيال المضمون ؟!!.. إنها حالة " نادرة " ليست جديرة بالدراسة فحسب .. !! بل لعلها الباعث لطرح إشكالية المسجد المعاصر ؛ بين ارث طاغ وحضور باهت ، .. تقوقع في اثرهما داخل إطار ، وثق لثباته في بني الإدراك ؛ فغدا الصورة " الوحيدة " و" **الواحدة** " للمسجد ، .. دونها " حياة " ؛ .. اختلفت جنباتها

وتعددت طروحاتها ، .. إنها حياة غير الحياة ، سجي المسجد في إثرها دونما حراك !! ، .. ولما لا ؟! .. وقد أصبحت أزمة المعتقد : " **وجهة نظر** " !!..!.

لقد بات " **المسجد** " في زمننا هذا بين شقي رحى : واقع صنعه " **الآخر** " .. تغيرت ملامحه ، وطالت طروحاته كل شيء ، وغربة فرضت علي " **الذات** " ..، دفعت بها لقاء حيرة دون مآل .. ؛ دلفت بها إلي واقع أخر " **مغيب** " ، .. مزيج هو ؛ .. بين بغية ذاك " **الأول** " ، وإمعان في تناسي ذلك " **الأخير**" ، .. بالفعل إنها أزمة ؛ بل قل إنها فتنة !!.. ؛ .. بات الحليم في إثرها حيران ..، صدق رسول الله ﷺ بقوله في شانها : " **يمسي الرجل مؤمنا ويصبح كافرا ويصبح كافرا ويمسي مؤمنا يبيع ...** " .. ﷺ .

علي أن ابرز ما يقتضيه موضوع الطرح يتعلق بـ " **تلاقي** " معاصر وملحوظ ـ بل ويصعب إنكاره ـ بين : نعت بالرجعية والتقوقع طال الدين وأهله ، وبين صورة باهتة اتخذها وتمثلها المسجد ومفرده .. ، ذلك " **الإسقاط** " وان كان غير معلن ..؛ إلا أن استحضاره في عصر لقب بـ " **عصرالصورة** " أمر يقارب علي البديهيات .. شكل رقم (3) ، لقد أضحي نفوذ الصورة " **صناعة الآخر** " الباعث والموجه ..، جعل من البداية " **نهاية** " ..، بل لعله قد ألغي البدايه " **بداية** " !!.

في ظلال ذلك " **مجملا** " وفي زمن خلا كل ليعرض عن " **ذاته** " .. هل لنا أن نتسال : **كيف أفل نجم التعبير عن خير البقاع .. وبات حبيسا لرؤى الماضي ؟!!** .. هل لنا أن نفصل بين رؤية العوام " **وربطهم الضمني** " بين الحضور المؤثر " **للآخر** " ـ بثه وطروحاته ـ وبين ضعف " **الذات** " وقلة حيلتها ، .. بل وترددها بين ماض ثر وحاضر اغفل وجودها !!.. ، كيف لنا أن نفصل بين روية ذلك " **الآخر**" لكيان تشكيلي اتخذ صورته " **المطلقة** " فيما بعد عصر الغرس ـ **ومع هذا ثبتت ملامحه ماثلة في الأذهان إلي يومنا هذا** ـ وبين رؤيته السطحية لحيثيات الغرس ؟!! .. أما كانت بني " **الغرس** " أولي " **بالثبات** " ؟!! .. لقد غدا " **الحضور** " جزءا من " **الدعوة** " .. أحد بواعث " **الإقناع** " ؛ ذلك هو طرح " **الواقع** " .. بل هي فلسفة هذا " **الزمان** " !!.

شكل رقم (3) .. بين جوجانهيم " رايت " وجوجنهيم " أوجيهري " تغير الواقع وتعددت طروحاته .. علي أن الاستقراء الجلي لتلك الطروحات في بني العمران المعاصر يجابه بأفول واضح تقره عمارة المسجد .. لقد تغير الواقع من حوله فهل آن الأوان لمراجعة أوجه المرونة في فلسفات تشكله ؟!!.

لأجل هذا ولغيره كثير تعرض الورقة لـ " **كنه** " المسجد في حقب خلت وفي واقعنا المعاصر .. لـ " **حضوره** " ؛ .. المسجد " **الرمز** " والمسجد " **الباعث** " .. ، أين هو ؟!!.. هل هو الماضي " **الرؤية** " ، أم أنه الماضي " **الغرس** " ..؛ فان كان " **الأول** " .. فليس بمطلق هو ، وان كان " **الاخير** " .. فاين مساحة الحرية التي كفلها له التشريع ؟!!.

الهـــــــدف :

تهدف الورقة البحثية إلى تقرير :

- دلائل البناء التشكيلي لعمارة المسجد المعاصر.
- موقع الموروث التشكيلي من الصياغة التعبيرية لعمارة المسجد المعاصر .
- بواعث التجديد في رؤي التشريع لسبل الصياغة التعبيرية لعمارة المسجد المعاصر .

المـــنهج العلـــمي :

منهج استقرائي تحليلي يعرض لدور الموروث التشكيلي في تكريس رؤئ ثباتة لقاء الطرح الفكري لسبل صياغة المفردات التعبيرية لعمارة المسجد المعاصر.

المســـجد المعـــنى :

" المسجد " : بـ " الكسر" أسم لمكان السجود ، والمسجد : بـ " كسر " الجيم .. الحصير الصغير ، والمسجد : بـ " الفتح " جبهة الرجل حيث يصيب السجود ، والمسجد : " شرعاً " هو الموضع الذي يسجد فيه ، قال تبارك وتعالي : ﴿ **ولله يسجد من في ..** ﴾ ، وفي حديثه ﷺ : " **جعلت الأرض لي طهوراً ومسجدا .** " .. صدق رسول الله ﷺ .

في القـــرآن الكـــريم :

قال تبارك وتعالي : ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وأدعوه مخلصين له الدين** ﴾ .. صدق الله العظيم .. ، وقال تبارك وتعالي : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .. صدق الله العظيم .. ، وقال تبارك وتعالي : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال** ﴾ صدق الله العظيم ، وقال تبارك وتعالي أيضاً : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من ءامن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وءاتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ .. صدق الله العظيم ، وقال تبارك وتعالي في محكم التنزيل : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه** ﴾ .. صدق الله العظيم .. وقال عز من قائل ، ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** ﴾ .. صدق الله العظيم .

في سنته صلي الله عليه وسلم :

قال النبي ﷺ : " **من بنى مسجداً لله ، بنى الله له في الجنة أوسع منه** " .. وفي رواية : " **من بنى مسجداً لله ولو مثل مفحص قطاه بنى الله له قصراً في الجنة** " ، .. وقال ﷺ : " **أبنوا المساجد وأخرجوا القمامة منها فمن بنى لله بيتاً بنى الله له بيتاً في الجنة ، وإخراج القمامة منها مهور الحور العين** " ، .. وقال ﷺ : " **إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا** " ؛ قيل : " وما رياض الجنة ؟ " ؛ قال ﷺ : " **المساجد** " ؛ قيل : " ما الرتع ؟ " ؛ قال ﷺ : " **سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر** " ، .. وقال ﷺ : " **المسجد بيت كل مؤمن** " .. ﷺ .

عمارة المســـــجد ..

.. بـــــــداية هـــــادفة :

بني مسجد النبي ﷺ عقب هجرته إلي المدينة المنورة .. بسيطاً ؛ جدرانه من اللبن ، وجزء من سقفه من سعف النخيل ، والآخر مكشوفاً ، أما عماده فكانت من جذوع النخيل .. وفي ذلك الشأن ذكر ابن جمـــاعة رحمه الله :

" أن النبي ﷺ أمر ببناء مسجد قباء ؛ .. **فبنى باللبن وجعلت عضادتاه بالحجارة ، وسواريه جذوع النخل ، وسقفه الجريد ، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع** ، وفي الجانبين الآخرين مثل ذلك ؛ **فهو مربع ، وجعل الأساس قريبا من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللبن** .. " .. الكتاني : *"التراتيب الإدارية والولايات المدينة ، طبعة 1971م "* .. وقد بناه الرسول ﷺ ثلاث مرات .. " الأولى " : بالسميط ، .. وهو لبنة أمام لبنة ، و "الثانية " : بالضفرة ، .. وهي لبنة ونصف في عرض الحائط ، و "الثالثة " : بالأنى والنقر ؛ .. وهي لبنتان تعرض عليهما لبنتان ".

و صيغ المسجد " النبوي " في ذلك كظلة مستطيلة منخفضة الارتفاع ؛ **بصدرها منبر ، وليس لها محاريب ، ولا مئذنة ، ولا صحن ولا مطهرة** ، و تضمن أبوابا عديدة ، تؤدي مباشرة إلى داخله ، ولم تعمل لأبوابه معالجات خاصة ، كذلك **لم تكن بالمسجد أبوابه بحائط القبلة** ، .. أما مواد الإنشاء المستخدمة فكانت من البيئة ؛ حيث بنيت حوائطه من اللبن ، والأعمدة من جذوع النخل ، والسقف من السعف ، ولم يعمل لحوائط المسجد بياض ، **واتسم بالبساطة في المسقط ، والصدق في التعبير عن أسلوب ومواد الإنشاء ؛ دون أي ميل للمغالاة أو الإسراف ؛ فلم يكن به زخرف ولا مبالغة تشكيلية** . " *الكتاني : التراتيب الإدارية والولايات المدينة ، طبعة 1971م "* .

وعلى غرار ذلك النهج .. بني مسجد البصرة سنة 14ه ، ومسجد الكوفة سنة 17ه ، وأيضا مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه في مدينة الفسطاط سنة 21 ه ، وكانت هذه المساجد جميعها يغلب عليها طابع البساطة ، .. خالية من المحاريب المجوفة ، ومن المنابر ، وكذا المآذن ، متخذة من مسجد رسول الله ﷺ المثال والمرجع .. " وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، المساجد .. ، سلطنة عمان www.maraoman.net/Mosques.asp?Page " .

تغـــــير ولكـــــن .. !! :

استمرالتناول التعبيري لعمارة المسجد وكما أشير مستمدا من " **المسجد النبوي** " مستهدفا تأكيد رؤية الشريعة لمحتوي البناء لفترة وجيزة ؛ ما لبثت أن استتبعت بتغير صاحب تتابع الأزمنة ، وما ارتبط بها من متغيرات ، مست كافة مناحي الحياة .. ؛ وبمجيء الدولة الأموية " **تحديدا** " تأثرت عمارة المساجد بالجانب الروحي ؛ فاستحدث علي المسجد عناصر عدة .. ارتبطت بالشأن الديني ، والاجتماعي ، وكذا الثقافي ؛ فازداد حجمه اتساعا ، وتعددت صيغ التعامل مع مفرداته التشكيلية ، بل وشهدت تطورا ألـ بها لتكون أحد أبرز فروع ما عرف بالفن الإسلامي ..؛ واسهم في تاكيد ذلك استحدث عناصر لم تكن موجودة بالمسجد " **الأول** " : كالمحراب المجوف ، والمقصورة ، والمآذن ، والقباب ، وكذا ظهور الزخارف ، وأعمال الفسيفساء ، وتكسيات الرخام ..، واساليب تذْهِيب تيجان الأعمدة .. ، إلي غير ذلك من إضافات ؛ أسهمت في تكريس نوع من الصياغة شبه الثابتة لعمارة المسجد ومفرداتها .. ، وأصبح يضم كل أو بعض الملحقات الآتية : الأروقة .. الرباطات .. الزوايا .. ، والمحاريب ، وغرف التدريس ، والإيوانات ، وغرف التعبد " زوايا الاعتكاف " ، وعبر عهود عدة شخصت تلك الصورة في الأذهان ، وانتهت إلي تقرير صيغ ـ مستنسخة ـ اقرب الي التكرار ..، قل أن يتخطاها بنائه التشكيلي !!.. صيغ " **عرفها** " ماضي بناها ، " **ووثق** " لحضورها واقع مسعاه تراجعها !!.

مســـــجد عمـــــرو .. مثالا :

إن تتبع أوجه التغير المتتابعة لمسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه يعد باعثا لاستقراء حيثيات التغير في " **عمارة المسجد** " عن تلك التي وثق لها في زمن النبي ﷺ ، وكان مسجد عمرو رضي الله عنه أول مسجد جامع أقيم في مصر ، والرابع في الدولة الإسلامية ، .. لذا يسمى بالجامع العتيق .. ، أنشئ مركزا للحكم عام "21ه/641م" ، وعد أول مدرسة للدعوة للدين الإسلامي ، ونواة لمدينة الفسطاط التي نمت حوله .. ويتكون المسجد حالياً " بمنطقة مصر القديمة قرب آثار مدينة الفسطاط " من صحن واسع مكشوف ، تحيط به أربع ظلل ، يتوسط الصحن قبة مقامة على ثمانية أعمدة رخامية مستديرة ..

كانت مساحة المسجد زمن بنائه 50 × 30 ذراعاً ، جدارنه من اللبن ، وأعمدته من جذوع النخيل ، .. ومسقطه الأصلي لاعلاقة له بالمسقط الحالي ، حيث أجريت عليه زيادات وإضافات متعددة عبر مختلف العصور الإسلامية ..، ومبانيه الحالية أقيمت خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، .. وذكر " ابن دقماق " في القرن الثامن الهجري بأن : " الشكل العام للجامع عند أول إنشائه كان : عبارة عن ***ظلة ذات مسقط مستطيل ، مسطحه حوالي 25×15 متراً ، لها سور ، ويحيط بها الطريق من جهاتها الأربع ، ولم يكن له فناء ، كما لم يكن به محراب أو مئذنة ، ولم يشتمل مسقطه على مطهرة*** ، وكان بالمسجد ستة أبواب في حوائطه عدا حائط القبلة ، كما كان به منبر، ولم تكن به معالجة معمارية خاصة للمداخل " .. " أسس التخطيط والتصميم ...." مرجع سابق ص 13 " .. وقد أقيمت الحوائط الخارجية بالطوب اللبن ، خالية من الزخارف أو البياض ، وكانت الظلة عبارة عن أعمدة من جذوع النخيل تحمل سقفاً من السعف ، عليه لياسة من الطين ، وكان الارتفاع الداخلي ـ على الأرجح ـ حوالي ثلاثة أمتار ؛ مثله في ذلك مثل المسجد النبوي .

ومجموعة التغيرات التي استحدثت على مسجد عمرو رضي الله عنه عبر الأزمنة المختلفة توضح خلافا في أوجه التناول الفكري لجوانبه التشكيلية ؛ بدءا من البساطة وصفاء الرؤية العقائدية في توجيه قيم التعبير ، .. وانتهاءا بالغلو والترف التشكيلي ، وضعف الدور العقائدي في توجيه مفاهيم البناء .. ، وتتبع أوجه التغير التي طرأت على المسجد عبر الأزمنة المختلفة يؤكد ذلك .. كما يلي:

في عام "93ه/710م" فى عصر الوليد بن عبد الملك وعلى يد الوالي قرة بن شريك هدم الجامع ، وعملت به أربع ظلات ـ يتوسطها فناء كبير ـ أكبرها ظلة القبلة، وكان يتسع لحوالى خمسة آلاف مصل ، وعملت مطهرة في فنائه ، كما عمل به عام "94ه/711م" محراب مجوف ، ووضع به منبر خشبي، وتوجت الأعمدة ، وذهبت بعض تيجانها ، كما حدد الفراغ أمام المحراب بمقصورة ؛ تقليداً لمقصورة معاوية بالجامع الأموي بدمشق ، وبلغ عدد أبوابه أحد عشر باباً.

في العصر الأموي "عام 53ه/672م" زيد مسطح الجامع ، وعمل له صحن ، وأضيف إلى دوره الديني وظائف مدنية متعددة ، حيث استغل كدار للقضاء ، ومكان للدرس .. وقد زخرفت أسقف الجامع في ذلك الوقت ، وبنيت له أربع صوامع في أركانه - على يد مسلمة بن مخلد - مشابهة للأبراج التي كانت في أركان المعبد الروماني بدمشق ، وكان المؤذنون يصعدون إليها بدرج من خارج الجامع.

وفى العصر العباسي زيد الجامع عدة مرات ، أكبرها زيادة الوالي عبد الله بن طاهر "212ه/827م" ، حيث أصبح مربع الشكل تقريبا 112.20م×120م ..، وفى العصر الفاطمي عام "406ه/1015م أضاف الخليفة الحاكم

بأمر الله "رواقين بصحن الجامع ، ولم تخرج الأعمال التي أجريت به بعد ذلك عن إصلاحه وزخرفته وتأثيثه ، إلى أن تغيرت معالمه تماماً عقب عمارة مراد بك له عام "1212هـ/1792م" ، حيث لم يراع فيها المسقط الذي كان عليه الجامع ، وتغيرت أبعاد الظلات والصحن، فأصبحت ظلة القبلة تشتمل على ستة صفوف من العقود بدلاً من سبعة ، وأصبحت عقود هذه البائكات عمودية على جدار القبلة بعد أن كانت موازية لها، مما أدى لسد أرجل العقود لبعض الشبابيك .. " منظمة العواصم الإسلامية: "أسس التخطيط والتصميم ..." ص 13.

ومسقط الجامع وقت إنشائه كان قد ارتبط ـ شكلاً ومضموناً ـ بالقيم التي وثق لها مسجد النبي ﷺ ، فالهدف توفير مسطح مغطى لحماية المصلين من العوامل الجوية ، .. أبوابه مفتوحة ومتعددة ؛ تستقطب المصلين ، ولم يشتمل المبنى في مسقطه الأصلي إلا على منبر.. ، ومواد الإنشاء مستمدة من البيئة ، معبرة عنها صراحة .. ، الجدران خالية من الزخارف ؛ حيث كانت صورة المسجد النبوي هي الإطار الذي حدد نمط المسقط والشكل العام للمسجد ، فلم يظهر فيه أي تأثر بالعمارة ـ الواقع ـ المصرية أو المسيحية الشرقية التي كانت شائعة في ذلك الحين .. من أبراج ، ومذابح ، ورسومات، وزخارف ..، بينما في العصور التي تلت ذلك " الأموي، العباسي، الفاطمي، العثماني " أستحدثت بالجامع عناصر لم تكن عرفت من قبل ، ولم يتضمنها المسجد النبوي : " كالمحراب المجوف ، والمقصورة ، والمآذن ، وكذا الزخارف ، وأعمال الرخام ، والفسيفساء .. ، وتذهيب تيجان الأعمدة " ، وتؤكد المصادر التاريخية أن المآذن التي أقيمت بأركان المسجد في العصر الأموي كانت " صورة من الأبراج التي كانت في المعبد الروماني بدمشق " .. " أسس التخطيط والتصميم ..." ص 14، 15 " .

وما تضمنه مسجد عمر بن العاص رضي الله عنه تضمنته معظم المساجد التراثية .. ، لقد بدأ المسجد " **هدفا** " أكده قوله ﷺ : " **جعلت الأرض لي طهوراً ومسجدا** " .. صدق ﷺ .. ؛ هدفا ثقل مضمونه قياسا إلي معطي ظاهره ، بيد انه قد انتهي إلي بناء تراكمي ؛ جسدته " رؤى " وأفردت له " اجتهادات " ..، أمعن التكرار والارتجال في الدفع بكليهما لقاء " **الظاهر** " ، خلافا لما يستهدفه " **المضمون** " !!. ولأجل هذا بات الاستنساخ عرفا ، ألفه العامة ، ووثق لسيرورته ذوي الاختصاص !!.. *دعنا نري كيف كانت بداية كل من :*

" *المحراب .. المنبر .. المئذنة .. القبة " ..وغيرها كثير ... ..*

المحـــــــراب :

المحراب : " **مأوى الأسد** " ، وفي القاموس المحيط .. المحراب : " **الغرفة** " ، وهو أيضا : " **صدر البيت وأكرم مواضعه** " ، وكذا : " **مقام الإمام في المسجد** " ، وهو " **الموضع الذي ينفرد به الملك فيتباعد به عن الناس** " .. .. ، وهو أيضا : " **القبلة** " ، و" **المحل الذي يتصل فيه المسلم بربه** " .

ولم يظهر المحراب سواء في زمن النبي ﷺ أو في عهد الخلفاء الراشدين من بعده .. ، وأول ظهوره كان في توسعة عثمان رضي الله عنه للمسجد النبوي ؛ حيث أقيمت مقصورة من الطوب حول المنطقة المخصصة له ، وفي عمارة الوليد للمسجد وضع محراباً مجوفاً في مصلى عثمان رضي الله عنه ، وقد عمل له جنبات ؛ بعضها مذهب وبعضها أسود ، وجعل على يمين المحراب باب ، يدخل منه الإمام ويخرج ، ثم وضع الأشرف قايتباي محراباً في مصلى النبي ﷺ عند عمارته للمسجد عام (888ه) .. وهو الموجود للآن ، وقد ذكر أن مصلى النبي ﷺ غرب التجويف قليلاً.

وغدا " **المحراب** " بشكله المجوف فيما بعد وعبر تطور عمارة المسجد ضمن ابرز العناصر المميزة لفراغ الصلاة ، وقد اتخذ " **صيغا** " تقليدية معتادة ـ مع استقلالية وتميز في طبيعة التناول التشكيلي والزخرفي ـ يرتفع في اغلبها بارتفاع جدار القبلة ـ داخلياً ـ تعبيراً عن السمو، وتتناسب مع ارتفاعه القبة التي قد تعلو فراغه ، وغالبا ترتفع عن مستوى كافة عناصر المسجد باستثناء مئذنته .

المنـــــــبر :

كان النبي ﷺ يخطب على جذع نخلة عند بناء المسجد أول مرة ، وفي عام 8 ـ 9 ه وبعد توسعته جعل منبراً من الخشب من درجتين ، ومقعد عرضه متر ، وارتفاعه متر ، وبقي على حالته هذا إلى عام 29 ه ، حيث كساه عثمان بن عفان رضي الله عنه ثياب رقاق مصرية ، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه رفع ست درجات ؛ أخري فأصبح تسع درجات ، وكسي ، وبقي على حالته إلى أن جدد في خلافة الناصر لدين الله عام 593ه ، ولما شب الحريق الأول بالمسجد النبوي عام 654ه أرسل المظفر صاحب اليمن منبراً له رمانتان من الصندل ، فنصب في موضع منبر ﷺ وظل عشر سنوات ، وفي عام 664ه أرسل الظاهر بيبرس سلطان مصر منبراً من الخشب عدد درجاته سبع درجات ، وجعل له باب بمصراعين ، ثم أرسل الظاهر برقوق منبراً عام 797ه ، وتلاه الملك المؤيد فأرسل منبراً عام 822ه ، وقد احترق مع المسجد عام 886ه .

ثم أقام أهل المدينة منبراً من الآجر مطلي بالنورة ، بدل فيما بعد بمنبر من الرخام ؛ أرسله الأشراف قايتباي عام 888ه ، وظل في موضعه حتى عام 999ه ؛ حين أرسل السلطان العثماني مراد منبراً من الرخام والمرمر ، وضع مكانه ـ ولا يزال إلى الآن ـ له اثنتا عشرة درجة .. ؛ ثلاث درجات خارج الباب ، وتسع داخله ..، وقد رمم في عمارة السلطان عبد المجيد 1265ه ـ 1277ه ، وكذلك عام 1405ه في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله تبارك وتعالي .

المـــــــــئذنة :

بدات في صورة مكعب اطلق عليه **الصومعة** " .. " عفيف بهنسي ، المدلولات الروحية في عمارة المسجد ص128 " ، و سميت فيما بعد : " **المنارة** " ومثلت أحد أهم عناصر عمارة المسجد عبر مراحل تطوره المتتابعة ، ولم تكن قد عرفت في عهد النبي ﷺ ولا عهد الخلفاء الراشدين ، حيث لم يتضمن المسجد النبوي الشريف مآذن آنذاك ، وكان بلال رضي الله عنه يصعد على دعامة مربعة بدار عبد الله بن عمر رضي الله عنه يرفع الأذان من فوقها، وقيل أنه كان يصعد على سطح منزل أسرة من بنى النجار لكونه أعلى منزل حول المسجد .

وأول من استحدث المآذن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ؛ عندما أمر الوليد بن عبد الملك بتوسعة وبناء المسجد النبوي 88 ـ 91ه ؛ فجعل له أربع مآذن ، في كل ركن مئذنة ، قاعدتها 4×4م ، وارتفاعها 30م ، وقد زاد الأشراف قايتباي عام 888ه منارة خامسة في الجهة الغربية عند باب الرحمة .

وعبر تتابع العهود الإسلامية ارتبط ارتفاع المئذنة بخصائص التشكيل الخارجي لمبني المسجد ؛ مع وجود تناغم في كنه العلاقات بينها وبين القبة من جانب ، وبين أبعاد وواجهات المسجد علي تتابعها من أخر .. بما يوحي للناظر بنوع من التجانس ؛ إزاء نسب التفاوت بينهما ، وما يترتب عليه من تنوع تشكيلي .. " أسس التخطيط والتصميم ..." ص 14، 15 " .

القـــــــــبة :

عرفت " **القبة** " في عمارة المسجد ـ تحديداً ـ في عهد الدولة الأموية ، إذ لم تكن قد عرفت في عهد الرسول ﷺ ، أوفي عهود الخلفاء الراشدين من بعده ، وقد غدت عقب ظهورها رمزاً وعنصراً أساسياً في عمارة المسجد ، وعادة ما شكلت إلي جانب المئذنة منظومة هندسية متوازنة ، أسهمت في تقرير صياغة مثالية لشكله العام ..، وبإعادة تحويرها وتجسيدها استطاع المعماري المسلم توظيفها ، والاستفادة منها في شتي العمائر الإسلامية .

والعناصر السابقة " **المحراب .. والمنبر .. والمئذنة .. والقبة** " .. وان غدت ابرز البني التشكيلية المميزة لعمارة المسجد .. شكل (4) إلا أن الإقرار بثبوتها ضمن بناء التشكيلية يعد من الامور التي قد داخلها الجدل ؛ .. باعتبار ان ظهورها جميعا ـ فيما عدا المنبر ـ كان بعد عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده .

فما اثير حول : " **المحراب** " و" **المنبر** " سنده الاقرار باهمية توافر الهدوء والسكينة لفراغ المسجد الداخلي ..؛ الامر الذي يحول دون المغالاة في كنه الصياغة وطبيعة التناول الزخرفي لكليهما .. ، أما " **المئذنة** " و" **القبة** " فقد ارتبطتا بطرح اخر .. ؛ فالبعض يرى أن إقامة "**المئذنة** " ليست بالامر الملزم ، بل ولاتستند لرؤية نابعة من قيم إسلامية ؛ فالمسجد النبوي لم يكن يتضمنها ، .. بينما يرى آخرون أن إقامتها غير مخالف لتعاليم الشرع ؛ باعتبار ان بداياتها كانت قد استهدفت إيصال صوت المؤذن إلي أكبر مسافة ممكنة .. ، وإن كان للوسائل التقنية المعاصرة استيفاء ذلك الغرض ، .. فيبقي دورها كعلامة مميزة للمسجد ؛ تؤكد علي كنه علاقته بالمحيط ، وتقر للقيم الرمزية التي تمليها عمارته.. اما " **القبة** " فقد ارتبطت الرؤي حولها بما هو اكثر تعقيدا ؛ .. ذلك ان حضورها في بني الموروث ـ ومن ثم في ذاكرة العمران ـ غالبا ماأرتبط بالقبور ، الامر الذي دفع بالبعض الي تحييدها استنادا الي ذلك ؛ وتجاوبا مع رؤي التشريع التي نهي فيها عن تشييد القبور .

وبالرغم من ان ذلك الجدل يعد مدعاه لامكانية تجاوز تلك العناصر حال التناول التعبيري لعمارة المسجد ؛ .. بل والحيلولة دون ادراجها ضمن ثوابت الصياغة التشكيلية لمفرداته ؛ الا ان مثولها الدائم ـ والمتكرر ـ ضمن الصورة المعتادة للمسجد قد جسد مايشبه " **القيد** " علي سبل التجديد المتاحة لتلك الصياغة !!.

شكل (4) " المحراب .. المنبر .. المئذنة .. القبة .. وغيرها "عناصر معمارية استحدثت فيما بعد عهد النبي ﷺ ظلت هي المرجع والاداه لصناعة المسجد عبر عهود شهدت لعديد من العمائر بتغيرات غير مسبوقة .
" جامع و مدرسة البطرسى " طرابلس " لبنان ـ التاريخ: 1324- القرن:14 "

قـــيود الاطـــــار .. .. القـــــــــيد :

ان إدراك البني الشكلية لعمارة المسجد لايتوقف علي نمط البناء فحسب .. حيث يتخطى تأثيرها " **الرمزي** " ودورها " **الوظيفي** " حدوده الجغرافية إلي نطاق أوسع ؛ .. تلتقي فيه الرؤي ، وتتوحد ازائه المشاعر، ليعد انذاك الباعث لدوافع العطاء ، والموجه لبني السلوك ؛ وهو وما يوثق لآهمية حضوره " **الشكلي** " ، وتاثيره " **الضمني** " في منظومة الواقع ـ الغير مسبوق ـ بكافة تجلياتها ؛ .. وحال ذلك يستطيع تجاوز أطره الإقليمية بقوة " **تعبيره** " عن البيئة والثقافة الخاصة بمحيطه العمراني . Khan, Hasan Uddin, "***An Overview of Contemporary Mosques***", 1994, pp, 247-267.

واستقراء واقع المسجد وماضيه القريب ينبئ عن " **معيار** " اخر ذو اتصال مباشر" **بكنه** " ذلك التعبير ، وكذا " **مردوده** " ؛ .. جسده مثول المسجد في ذاكرة المجتمع ـ وكما سبق الاشارة ـ ولاسباب عدة متخذا اطرا تشكيلية اقرب الي التوحد ، اختزلت ازائها بواعث التغيير .. كرس فيها لنموذج اوحد لم يابه بمتغيرات الامكنة وطروحات الازمنة .. الأمر الذي دفع بصيغه التعبيرية لقاء نوع من التنميط ، والتكرار ، .. واحيانا الاستنساخ ؛ .. الي الحد الذي ظهر في اثره ـ وكمثال ـ مايسمي بـ " المسجد **الرسمي** للدولة " في مصر..؛ جسدت صورته مفردات وعناصر معمارية مستقاه من مساجد القاهرة التاريخية ؛ خاصة تلك ذات الطرز المملوكية ، تلك التي عدت اكثر الطرز التاريخية تاثيرا في انماط المباني الاسلامية في مصر عموما ..- Davidson, Cynthia, "***Mosque of the Grand National Assembly*** ", 1995, pp. 124-131.. من هنا جاء " **القـــيد** " !!.

فالمعني بـ " **القيد** " ارتباط الإدراك بذلك **الإطار الجامد الذي اتخذته صورة المسجد عبر حقب متتابعة** ، احتملت الاجتهاد " **بالإضافة** " في البداية ، .. وارتكنت إلى " **الاستنساخ** " المطلق لقيم تشكيلية ؛ بدات كتكرار نمطي وآلت إلي " **الاستهلاك** " مع نهاية الأمر .. لقد بدا مسجدنا المعاصر احد الصور المدبلجة لمسجد الماضي " **القريب** " منه ، و " **البعيد** " ..!!.

ذلك أن ملامح الإرث التشكيلي لعمارة المسجد ومفرداته التعبيرية كانت قد ارتبطت ـ وعبر عهود متتالية ـ بأطر ثابتة لا تتخطاها ، .. جسدت المورد والباعث لنشأة أي مسجد ، إلي الحد الذي حدا بهيئة الأوقاف المصرية ـ ومنذ زمن بعيد ـ إلي وضع مجموعة بدائل معمارية ، كرست من خلالها لنموذج تشكيلي أوحد ، هو أقرب إلي " **الاستنساخ** " ، يكاد يخلص إلي تصور تشكيلي واحد لصورة المسجد ـ أي مسجد ـ علي اختلاف موضعه وزمانه .. توزع تلك البدائل علي الراغبين في بنائها ، للمفاضلة فيما بينها والالتزام الكامل بها .. ؛ الأمر الذي دفع بالنتاج التراكمي لعمارة المسجد " مجملة " لقاء صياغة تعبيرية محددة سلفا ، ترتبط في أذهان المصمم والمستخدم ـ علي حد سواء ـ بروي جامدة لا تحتمل التأويل أو التغيير .. بل لعلها لا تستدعي بواعث الثبات التي وثق لها زمن الغرس ..؛ إزاء تقوقعها داخل " **قيد** " ؛ .. أشتمل علي صورة ، اقرب إلي توحد " **القالب** " ، وادعي إلي استكانة " **العقل** " .. لا "**القلب** " !!..

وتتبدي **الإشكالية** حال ربط **دوافع** العطاء لدي أي مسلم .. بكنه عمارة " **المسجد** " !! ولما لا وهو الباعث والملاز .. فان كان المسجد " **الصورة** " ، و "**الرمز** " ، .. بل و "**المحتوى** " .. قد آلـ .. إلي " **تنميط** " ، قرب ازائه من السبات !! ، .. ***فمن أين تأتي قوة الدفع*** ؟!! .. بل وحيثيات الدافع ؟!!..

سبيل القـــــيد ..

عمارة المسجد المعاصر :

ترددت صياغة المسجد المعاصر ـ في ارتباطها بمعطيات الموروث ومتغيرات الواقع المعاصر ـ بين مجموعة اتجاهات :

" اتجاه تقليدي محلي .. اتجاه محافظ .. اتجاه إسلامي محدث .. اتجاه تلفيقي .. اتجاه العمارة الشعبية والاتجاه المعاصر " .. . "Ihsan, Fethi, "***The Mosque Today*** ", 1985, pp.53-63."

وعلي الرغم من ان المسجد في سياق *الاتجاهات* ***" الاربع الاول*** " كان قد استوحي شكله الخارجي دائما من طراز واحد يتم مفاضلته وانتخابه ـ من قبل الجهة الممولة او تلك القائمة بعملية التصميم وادارة المشروع ـ استنادا الي موروث وثقافة الدولة التي يقام فيها .. فالتصميم غالبا مايعكس الهوية الذاتية وطموحات المجتمع متخذ المبادرة بانشاء المسجد.

Arkoun, Mohammed, "***The Metamorphosis of the Sacred*** ", 1994, p, 268. .. الا أن اقتران مجمل التصنيف باشكالية التجديد في عمارة المسجد .. استنادا الي ثقل الموروث ـ ومثوله في اذهان العامة وذوي الاختصاص ـ من جانب والطروحات الغير مسبوقة لمعطيات الواقع المعاصر من جانب اخر يدفع بنا لقاء تصنيف أخر ؛ يميز بين : التناول " **التقليدي** " ، والروئ " **التشكيلية** " ، وتلك التي تستهدف " **المعاصرة** " في التعبير .. علي نحو مايلي :

أولا : *رؤي " **تقليدية** " .. ترددت مابين " **تقليدية** " تناول معطيات الواقع البيئي المحلي ، أو " **الحفاظ** " علي بني ومفردات الموروث التراثي لعمارة المسجد ، أو " **التطور** " المحدود .. وجمعت بين اتجاهات ثلاث :*

- *اتجاه تقليدي محلي.*
- *اتجاه محافظ.*
- *اتجاه إسلامي محدث.*

اما الاتجاه التقليدي المحلي .. *فيتضمن تناولا تقليديا لمفردات وعناصر المسجد استنادا الي دلائل رمزية محلية خاصة بمنطقة محددة داخل اقليم ما، مثل مساجد منطقة النوبة بصعيد مصر .. والتي تعد امتدادا لثقافة المجتمع النوبي ، ويتاكد ذلك في اساليب البناء التقليدية ومواد البناء المحلية المستخدمة مثل الحجر والطوب اللبن والخشب وزعف النخيل .*

مسجد كورنيش جدة " السعودية " عبد الواحد الوكيل ومسجد جزيرة جدة " البحرين " المصمم / يوسف داود السابغ (1992 م) ، و جامع الدولة " الكويت " محمد صالح مكية ، 1979

وأما الاتجاه المحافظ .. *فيعتمد علي استنباط اشكال مالوفة وبني تشكيلية بعينها من نماذج تاريخية سابقة .. مع امكانية استخدام سبل تقنية مستحدثة في بنائها " عكس الاتجاه التقليدي " .. بمعني ان التحديث يرتبط بالسلوك الانشائي والحفاظ يستهدف الصياغة المعمارية .*

والاتجاه الاسلامي المحدث .. *يرتبط باستخدام مفردات العمارة الاسلامية في هذا الاتجاه في سياق متطور وبتقنيات حديثة .. بمعني تطوير بعض من المفردات التاريخية لانتاج اشكال غير تقليدية .. اما الارتباط بالنطاق الجغرافي المحلي فيعتمد علي استخدام عناصر رمزية تقليدية .*

جامع الملك عبد الله بعمان راسم بدران 1979م ، ومسجد: عائشة بكار للمعماري " جعفر طوقان " عام :١٩٧٣

ثانيا : *رؤي " **تشكيلية** " .. ترددت مابين الجمع والمؤائمة بين مفردات الموروث ، فيما عرف بـ " **التلقيط** " ، أو الاجتهاد في تطبيع تلك القيم وتوظيفها لقاء رؤي شعبية ؛ لاتمعن في كنه ومضمون مفردات التشكيل بقدر ماتتخذها سبيلا للتعبير عن الذات ، فيما أطلق عليه " **النتاج الشعبي** " ؛ وتتضمن :*

- *اتجاه تلقيطي .*
- *اتجاه العمارة الشعبية .*

الاتجاه التلقيطي .. *يعتمد علي الجمع بين المفردات والاشكال والرموز المميزة لطرز اسلامية موروثه .. وتوظيفها ؛ دون مراعاه لجذورها التاريخية .. او لمدي توافقها بصريا ورمزيا مع طروحات الواقع الثقافي والبيئي العمراني لحيز العمل المعماري .*

*واتجاه **العمارة الشعبية** .. هو نتاج لثقافة العامة .. يفتقر الي المرجعية ، ويركن الي تناول سطحي لمفردات التشكيل ، ويعتمد علي ادراك المستخدمين لبعض الصور في مجال بيئتهم الشعبية ، وتحويلهم اياها الي عمل معماري ، دون مراعاه لمرجعية تراثية أو لقيم ثقافية او بصرية .. فالتعبير مباشر يرتبط بالكلفة الاقتصادية والامكانيات الفنية المتاحة .*

***ثالثا : رؤي " معاصرة "** .. ارتبطت بأفكار مستحدثة ؛ استهدفت تقرير حضور المسجد ضمن بني المدينة المعاصرة ؛ بما يمليه ذلك من توظيف واحتواء لمعطيات الواقع التقني وماتضمنه من متغيرات فكرية وثقافية غير مسبوقة .. قد تنتهي الي صيغ تعبيرية متطورة ، تلتقي وطروحات العمارة العالمية المعاصرة .. ازاء استنادها لبني تشكيلية مجردة ، واعتمادها علي وسائل انشائية حديثة .. ويهدف المعماري أنذاك لاحداث تغيير في الصورة الدارجة والمالوفة لعمارة المسجد .*

مسجد النيلين المعماري جمار الدولة عبد القادير " 1976 " ، ورؤية تصميمية معاصرة للمسجد للمعمارية زها حديد

مبعث التجديد .. عودة إلي الباعث :

*أما " **الباعث** " فيجسده ذلك النطاق المرن الذي أقرته العقيدة فيما بعد ثوابت " **التشريع** " .. لأجل طرح تشكيلي يفي بمقتضيات تغير المكان وتتابع الأزمنة .. ومايستتبعه من تقرير بني الخصوصية المكانية والثقافية .. والسند في ذلك ما اقره رسول الله ﷺ بالقول او بالفعل ، وجسد ذلك مسجده ﷺ بالمدينة المنورة .. ولأجل إدراك حدود ذلك الباعث لابد من تقرير نطاق " **الثوابت** " في صياغة المسجد ؛ .. باعتبار أنها تشكل البداية لمرونة الطرح .. تلك الثوابت التي يمكن استقرائها في رؤي " **العقيدة لكنه الصياغة التشكيلية لعمارة المسجد** " .. وتتحرك في سياق التلاقي المتوازن لإطارات ثلاث :*

- اطار **عقائدي** .. ينسحب علي جوانب الأمر والنهي في توجيهات الشرع لقاء الصياغة التعبيرية لعمارة المسجد .
- إطار **وظيفي** .. ينسحب علي المستهدفات الوظيفية لمجمل عناصره ؛ بما يتفق ورؤي التشريع .
- إطار **قيمي** .. وينسحب علي كنه الصياغة التعبيرية لمفرداته استنادا الي المضمون القيمي لتوجيهات الشرع .

***الاطار العقائدي** .. وينسحب علي جوانب **الأمر والنهي** في توجيهات الشرع لقاء الصياغة **التعبيرية** لعمارة المسجد .. وابرز ما تتضمنه وترمي إليه ثبات الرؤية العقائدية والحيلولة دون أي استحداث أو ابتداع .. فال ﷺ " **من أحدث في ...** " صدق ﷺ ، وتتضمن مايلي :*

- تجنب بناء المساجد على القبور، لقوله ﷺ في حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه: "***لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه***" ، قالوا : " اليهود والنصارى يا رسول الله ؟ " .. قال " ***فمن الناس؟!!*** .. " صدق ﷺ ، وفى تلاقى هذا الحديث مع حديث السيدة عائشة رضي الله عنها: "أن أم سلمة وأم حبيبة وصفتا للنبي صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتاها بالحبشة يقال لها مارية وذكرتا ما فيها من حسن التصاوير، فقال صلى الله عليه وسلم: "أولئك كانوا إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة" .. نقول أن تلاقى هذا الحديث مع سابقه تأكيد للمعنى المستهدف.
- أول منبر بالمسجد اتخذه الرسول عليه الصلاة والسلام كان جزءاً من جذع نخلة ، واستتبعه منبر من درجات ثلاث فقط ، يعلوها مجلس للخطيب في صياغة بسيطة تخلو من أية زخارف أو تفاصيل ، غير ان اهمية روية المصلين للدعاء اعلي المنبر يمكن ان تؤثر علي ارتفاعه وفقا لنطاق اتساع فراغ الصلاة .
- الفصل الكامل " استقلالية المداخل " بين حركة الرجال وحركة النساء في اتجاه تردد كليهماعلى فراغ الصلاة المخصص له.

- حنية القبلة لم ترد ـ ولم يكن لها وجود ـ في صياغة الرسول عليه الصلاة والسلام لأول مسجد وجد بالإسلام ، وصياغة حائط القبلة ينبغي أن لا يتأتى بصورة تتسبب في شغل المصلين بزينة مفرطة او مغالاه تشكيلية ، أو بوجود نوافذ في مستوى النظر تحول دون تركيز نظر المصلين مع خطبائهم .

الأطار الوظيفي .. ينسحب علي المستهدفات الوظيفية للمسجد ولمجمل عناصره المعمارية .. بدءا بعلاقاته بمعطيات المحيط الحضري ومرورا بسعته واستقلالية مداخله .. الي غير ذلك من اشتراطات :

- ينبغي ان توزع المساجد على مختلف المناطق الحضرية بما يتفق واحتياجات المترددين عليها وتحديدا صغاروكبار السن وذوي الاعاقة ، وقدرت الدراسات المسافة بين المسجد وموقع السكني بـ 400م كحد أقصى ؛ وطبعي أن يتحدد حجم المسجد وفقا لموقعه ، وعلاقاته بأجزاء التجمع ، ومراكز المجاورات من جانب ومركز التجمع ككل من جانب آخر.
- يراعى أن تكون مداخل المسجد من الخلف حتى لا يقطع الداخلون طريقهم بين يدي المصلين ، قال الرسول ﷺ : "***لو يعلم المار بين يدي المصلين ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه*** " صدق رسول الله .
- يراعى ضرورة تزويد مداخل المسجد بمنحدرات بالقدر الذي يكفل دخول المعاقين للمسجد في يسر لأداء الصلوات المختلفة.
- تحسب سعة المسجد - استناداً إلى استحباب عدم ترك فراغات بين المصلين في الصف الواحد - باعتبار العرض المخصص للمصلى - حال وقوفه - حوالي 0.50م، والمسافة المتاحة لسجوده بحوالى 1.20م ، وهو ما يعنى أن الشخص يحتاج لمساحة إجمالية قدرها 1.6م2. " عبد القادر حمزة كوشك "المنهج الإسلامي في تصميم العمارة " ، 1991م.
- قال رسول الله ﷺ : "***خير صفوف الرجال أولها*** و..، وخير صفوف النساء آخرها و.. ".. صدق رسول الله ﷺ، على أن اتخاذ المسقط الأفقي مستطيلاً تحتم أفضلية أن يأخذ البعد الأطول اتجاها عموديا على اتجاه القبلة لإعطاء فرصة أكبر للصفوف الأولى ، وقد ورد فى الصحاح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : "***لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا*** " .. صدق رسول الله ﷺ ؛ رواه البخارى ومسلم، وفى رواية لمسلم قال ﷺ : "***لو تعلمون ما فى الصف المتقدم لكانت قرعة*** " .. صدق رسول الله ﷺ .
- رؤية المصلين لخطيب الجمعة من الأمور المستحبة شرعاً ، وكذلك عدم قطع الأعمدة لصفوف المصلين، وهو ما يكفل للمسجد نوعاً من المرونة التشكيلية حال استيفاء تلك المتطلبات من خلال استثمار أوجه الإنشاء بتطوراتها المتاحة.. والتقاء ذلك الأمر وحديث ابن أبي الدنيا في قوله ﷺ : " ***ابنوه عريشا كعريش ..*** " .. صدق رسول الله ﷺ ؛ يكفل نوع من المرونة التشكيلية إزاء ما تتطلبه زيادة سعة المسجد من روي تشكيلية تتفق وتلك الزيادة .
- يتعين أن تكون الصياغة التشكيلية لمنطقة الميضاء بالقدر الذي يجتنب من خلاله استقبال مستخدمي الحمامات ـ حال استعمال مرافقها ـ أو استدبارهم لقبلة المسلمين "الكعبة المشرفة"، لقوله ﷺ : " ***إذا جلس أحدكم لحاجته فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها*** " صدق رسول الله ﷺ ، رواه أحمد ومسلم.

الأطار القيمي .. وينسحب علي كنه صياغة المفردات التشكيلية لفراغات المسجد " داخليا " ، وكذا الثقل التعبيري لعلاقات عناصره " خارجيا " ، ومدي توافقها مع ماتمليه خصائص الموقع المحيط ، .. تقريرا للمضمون القيمي لتوجيهات الشرع ؛ وما يستتبعه من تقرير لثقله الرمزي كأحب البقاع إلي الله تبارك وتعالي ، اضافة الي تهيئة فراغاته لمعاني الخشوع والرهبة ، لا الانبهار والانشغال عن ذكر الله عزوجل ،.. قال رسول الله ﷺ ؛ فيما رواه أبو داود وغيره ، لسند صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : " ***ما أمرت بتشييد المساجد لزخرفتها ..*** " صدق رسول الله ﷺ ، كذلك فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وسع المسجد النبوي قوله للبناء : "***أكن الناس من الحر والقر ولا تحمر ولا تصفر***".. وهو ما يؤكد أن غاية البناء فى مساجد الله عز وجل هى درء الحر والبرد عن المصلين .. وعليه فانه ينبغي الالتفات الي اهمية :

- أهمية التبسط فى التعبير التشكيلي حال بناء المساجد وضرورة تجنب الزخارف، ويؤكد هذا المعنى قول الرسول ﷺ : "***جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً*** " صدق ﷺ .. ذلك أن جعل الأرض للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين من بعده بمثابة مسجد يعنى أن الصلاة ليست بشكل وطبيعة المكان التى تؤدى به ؛ بل هى فى المقام الأول صلة وتركيز يتلاشى خلالهما أي تركيز أو تعايش للمصلى مع ما حوله دون صلاته، وفى ذلك المقام

تستوي الزخارف مع عدمها بل إن عدم وجودها أدعى للمساعدة على تركيز المصلى وتدبره فى أركان الصلاة بالقدر الذي يتفق ومقتضى أداءها.. الأمر الذي يتعين ازائه تجنب الزخارف بكل أشكالها وتحديدا فى فراغ الصلاة .

- ارتفاع المسجد ينبغي أن يتفق وطاقة استيعابه للمصلين وبما يتفق ومتطلبات التهوية لحجم الفراغ ككل مع تجنب المغالاة فى الارتفاع ، حيث نهى عمر رضي الله عنه أن يرفع ارتفاعه عن سبعة أذرع ؛ وقال : "إذا بنيتم فيه بيوتكم فابنوا منه المسجد" .. وروى عن ابن أبى الدنيا بإسناده عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن رضي الله عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجده قال : ***ابنوه عريشاً كعريش موسى عليه السلام*** " صدق ﷺ ، قيل للحسن : "وما عريش موسى؟ " قال : " *إذا رفع يده بلغ العريش* " ؛ يعنى السقف ..

نتـــائج الورقة البحـثية :

رؤى التشريع لقاء عمارة المسجد لا تتضمن أطرا جامدة ؛ تحول دون التفاعل مع مستجدات المحيط الزمني ، وذلك المكاني ؛ ذلك أن الإنسان هو صنعة الله تبارك وتعالي ، كفل له من التشريع ما يضمن استيعاب متغيرات الزمان وطروحات المكان .. من بعث ادم عليه السلام إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها .

السياق التشكيلي لعمارة المسجد عبر عهود ماضية درج على اتخاذ صيغ تكرارية اقرب إلى الاستنساخ ؛ تجسدت في سياقها ملامح متعارف عليها .. بعضها يركن الى موروثات نمطية ترتبط بالشكل دون المضمون .. استدراك المسجد " كبناء عقائدي" ازائها إلى طروحات بديلة عدت غيبة التجديد سمته تشريعي هو منها براء .

المراجـــــــع :

1. الكتاني : "***التراتيب الإدارية والولايات الدينية*** " ، الطبعة الثانية ص76 ، دار الكتاب العربي - بيروت 1971م .
2. منظمة العواصم والمدن الإسلامية: "***أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة*** *.. دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة* " ص 17 ، إعداد : " *مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية ، مركز إحياء تراث العمارة الإسلامية* " جدة ، المملكة العربية السعودية ، 1411ه - 1990م.
3. عبد القادر حمزة كوشك : "***المنهج الإسلامي في تصميم العمارة*** " .. بحث قدم خلال لحلقة الدراسية الرابعة لمنظمة العواصم الإسلامية ، الرباط ، المملكة العربية المغربية ، 5 - 7 شوال 1411ه ، 20 - 22 ابريل 1991م .
4. حسين مؤنس : "***كتاب المساجد*** " ص 31 ، الكويت ، عالم المعرفة ، رقم 1981/37.
5. المقريزي : "***الخطط المقريزية*** " بولاق ، القاهرة ، ج1، 1270ه .
6. ثروت عكاشة : "***القيم الجمالية في العمارة الإسلامية*** " ، دار المعارف ، القاهرة ، 1981م .
7. عفيف بهنسي : "***المدلولات الروحية في عمارة المساجد*** " الكويت ، عالم الفكر ، العدد 2 ، المجلد 31 اكتوبر ت ديسمبر 2002م .
8. محمد حسين صالح إبراهيم : "***عن العمارة الإسلامية*** " مجلة البناء – السنة السابعة – العدد 37– ص 11/10 - محرم / صفر1408ه – أكتوبر/ نوفمبر 1986/85م .
9. سعاد ماهر محمد : "***العمارة الإسلامية عبر العصور*** " ، دار البيان العربي ، جدة ، 1985م.
10. فريد محمود شافعي : "***العمارة العربية الإسلامية .. ملضيها وحاضرها ومستقبلها*** " ، جامعة الملك سعود ، الرياض 1982م .
11. محمد مكية : "***العمارة الإسلامية بين الاصالة والمعاصرة*** " مجلة البناء – السنة الخامسة – العدد 26 – ص 73/69 - ربيع الأول / ربيع الثاني 1406ه – ديسمبر / يناير 1986/85م .
12. اسماعيل سراج الدين "***التجديد والتاصيل .. في عمالرة المجتمعات الاسلامية*** " ، دراسة لتجربة الاغاخان للعمارة ، جنيف ، سبتمبر 1989م .

13. Arkoun, Mohammed, "***The Metamorphosis of the Sacred*** ", in the Mosque: History, Architectural Development and Regional Diversity, London 1994, p, 268.
14. Davidson, Cynthia, "***Mosque of the Grand National Assembly*** ", In Architecture beyond Architecture. Cynthia C. Davidson, and Ismail Serageldin, eds. London Academy Editions, 1995, pp. 124-131.
15. Ihsan, Fethi, ***"The Mosque Today*** ", In Architecture in Continuity, Sherban Cantacuzino, Ed. New York: Aperture, 1985, pp.53-63.
16. Khan, Hasan Uddin, "***An Overview of Contemporary Mosques*** ", in the Mosque: History, Architectural Development and Regional Diversity, Ed, Frishman, M. and Khan, H. London 1994, pp, 247-267.

مواقـــــع الكترونية :

17. mailto:infos@habous.gov.ma?subject=Demande d'information.
"وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، "***مكانة المساجد في المدن الإسلامية*** " الرباط ، المغرب "
18. www.maraoman.net/Mosques.asp?
"وزارة الأوقاف والشئون الدينية.... "***المساجد*** " سلطنة عمان"